

الغنيمة الضائعة
ميرفت بنت كامل أسرة
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار ابن الأثير

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن من أعجب التناقضات التي تمتلئ بها حياتنا المعاصرة شدة حرصنا على ممتلكاتنا الخاصة من أموال ومستندات... الخ، حتى إذا فقدنا شيئًا منها فإننا نبذل قصارى جهدنا لاسترجاعها أو الحصول على بديل عنها.

بينما لا يكون ذلك الحرص منا على استرداد الغنيمة الضائعة في حياتنا، والتي تضمنها حديث النبي ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**» [أخرجه أحمد وغيره وصححه الألباني].

فالفراغ -أخي الطالب- من نعم الله تعالى علينا التي تستوجب شكره عز وجل عليها باستعمالها في طاعته جلَّ شأنه؛ قال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» [أخرجه البخاري].

فاغتنام أوقات الفراغ هو استثمار لعمر الإنسان؛ لأن الوقت هو مادة الحياة؛ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مرَّ السحاب، فما كان من وقته لله وبالله، فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا اقتطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته». اهـــ.

وبنظرة سريعة لحالنا مع أوقاتنا نجد أننا قد فرَّطنا فيها كثيرًا؛ فهذا رجل يلهث خلف سراب الدنيا الزائف ليل نهار، وهذه امرأة طوافة بالأسواق، تبحث دومًا عن كل جديد، وذاك شاب يمتطي صهوة جواد الإنترنت؛ لزيارة مواقع الفساد والريبة! وهذه شابة تجوب صفحات المجلات بالغدو والآصال؛ لمعرفة آخر صيحات الموضة في العالم، وذلك فتىً لا همَّ له سوى متابعة المباريات الرياضية، وتلك فتاة أسيرة القنوات الفضائية، تسافر بخيالها مع سعير الأفلام والمسلسلات إلى مستنقعات الرذيلة، فأي إهدار للأوقات بعد هذا ؟!

ومما ينبغي ألا يغيب عن أنظارنا -أختي الغالية- أن إهدار أوقات العمر لن يمر مرور الكرام، بل سيحاسبنا الله عز وجل عليه يوم القيامة يوم الحسرة والندامة؛ قال ﷺ: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم**» [أخرجه الترمذي وحسَّنه الألباني].

فكل ساعة بل كل دقيقة بل كل ثانية من عمرنا سنُسأل عنها كيف أمضينا؟ أفي طاعة الله عز وجل أم في معصيته؟ وعند نزول هادم اللذات ومفرق الجماعات سيندم المفرِّط منا على تقصيره، وإضاعته لعمره وأوقاته بلا جدوى، ولات حين مندم؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وإن مما يحزن القلب ما نشاهده من حرص غير المسلمين على أوقاتهم في الحين الذي يتفنن المسلمون في إهدار أوقاتهم؛ فكثيرًا ما نرى الواحد من غير المسلمين – ذكرًا كان أم أنثى – ممسكًا بكتاب يقرؤه؛ ليقطع به الوقت أثناء جلوسه في صالة المطار أو في القطار أو خلال انتظار في عيادة الطبيب، بينما من النادر أن نرى مسلمًا – أو مسلمة – يفعل مثل ذلك، بل إننا –معاشرَ المسلمين– نملك كنزًا نفيسًا لا يملكه غيرنا، كنزًا ثقيلاً في الميزان غير مكلف في حمله لأي مكان ومع ذلك قلما نأخذ منه ألا وهو ذكر الله تعالى والاستغفار.

فهل يشق علينا مجرد تحريك ألسنتنا بذكر الله عز وجل أثناء تحركاتنا وتنقلاتنا من مكان إلى مكان؟! بالتأكيد لا.. ولكنَّ داءنا يا أخية هو دنو هممنا الذي يحول بيننا وطرق أبواب الخير.

على النقيض من سلفنا الصالح الذين علت هممهم حتى عانقت الثريا، فعرفوا كيف يغتنمون أوقاتهم في طاعة الله عز وجل؛ قال الحسن البصري رحمه الله: «لقد أدركت أقوامًا كانوا أشد حرصًا على أوقاتهم من حرصكم على دراهمكم ودنانيركم». اهـــ.

فإذا كان المخاطبون بذاك الكلام التابعين وهم خير القرون بعد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فكيف بنا نحن المفرطين الذين أفنينا أوقاتنا في اللغو واللهو والعصيان؟!

ولقد جاء في خطبة لعمر بن الخطاب ﷺ (أنه سأل الله عز وجل إصلاح الساعات). اهـ. أي :قضاءها فيما يرضي الله عز وجل من أعمال صالحة، وكان همام بن الحارث رحمه الله يدعو بقوله: «اللهم اشفني باليسير من النوم وارزقني سهرًا في طاعتك». اهـ.

فهؤلاء القوم عرفوا نقطة البداية في الطريق الموصل إلى حسن اغتنام الأوقات؛ وهو دعاء الله عز وجل، فهل قمنا نحن بذلك مع شدة حاجتنا إليه!!

ثم بعد ذلك لننظر كيف طبقوا حرصهم على اغتنام دقائق العمر في أرض الواقع.

* قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة). اهـ.

وذلك لقلة كلامه حفظًا للسانه من الزلل وابتعادًا عن الثرثرة وفضول الكلام.

* وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «كان عبد الله بن الزبير ﷺ صوَّام النهار قوَّام الليل وكان يسمي حمام المسجد».

* وكان الخطيب البغدادي رحمه الله يمشي في الطريق وفي يده جزء يطالعه، أي: كتاب .

* وقال ابن عقيل رحمه الله: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأما منطرح فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره».

وقال أيضًا رحمه الله: «وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي؛ حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على أكل الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفرًا على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها فيه».

* وقال جماعة من الناس لعبد الله بن المبارك رحمه الله: «إذا صليت معنا لماذا لا تبقى معنا وتجلس؟! فقال لهم: أذهب فأجلس مع الصحابة والتابعين، فقالوا له: فأين هم؟! فقال: أذهب فأنظر في كتبي فأدرك أعمالهم وآثارهم، ماذا أصنع معكم؟! وأنتم تجلسون تغتابون الناس».

* وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لقد أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة».

* وكان ثابت البناني رحمه الله يقول: «كابدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، وتلذذت به عشرين سنة.».

* وكان عثمان بن عفان ﷺ يقول: «لو طهرتم قلوبكم ما شبعتْ من كلام ربكم».

* ولما احتضر العبد الصالح أبو بكر بن عياش رحمه الله بكت عليه أخته فقال لها: «ما يبكيك؟! انظري إلى تلك الزاوية من البيت، لقد ختمت القرآن فيها ثماني عشر ألف ختمة».

* وعن عروة بن الزبير رحمه الله قال: «أتيت عائشة رضي الله عنها يومًا لأسلِّم عليها فوجدتها تصلي وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، ترددها وتبكي فانتظرتها، فلما مللت من الانتظار ذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت إلى عائشة فإذا هي على حالتها الأولى تردد هذه الآية في صلاتها وتبكي».

* وفي ذات يوم مرَّ القاضي (شريح) بمجموعة من الناس وهم يلعبون ويلهون ويثرثرون، فقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا: تفرغنا، فقال لهم: وهل أُمر الفارغ بهذا؟ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨].

وما هذه الأخبار إلا غيض من فيض في حال السلف الصالح مع الأوقات وحسن اغتنامهم واستثمارهم لها.

وهكذا ينبغي لنا أن نتخذ من سيرة سلفنا الصالح نبراسًا وسراجًا نستضيء به في حفظ أوقاتنا واغتنام فراغنا، وليس ذلك بصعب المنال -أختي الحبيبة- فهم بشر مثلنا إلا أنهم تفاضلوا علينا بقوة الإيمان ورسوخه في قلوبهم والذي ظهر جليًّا في أعمالهم وأقوالهم.

وأكبر دليل على ذلك ما وصل إليه بعض علماء زماننا الأفاضل من علو الهمة وصون الأوقات؛ مثال ذلك: سماحة الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله الذي يذكر عنه أنه من شدة حرصه على الاستفادة من وقته خصص لحفظ بعض المتون وقت وضوئه

للصلاة، وفضيلة العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله الذي لم تكد أوقاته لتمر دون فائدة حتى أنه في طريقه إلى المسجد كان يقرأ عليه أحد طلبته بعضًا من الكتب.

ففي حياة أمثال هؤلاء العلماء الأعلام رد عملي على كل مَن يزعم أنه لا يمكن أن يعيش كحياة السلف الصالح؛ لبُعد الزمان وكثرة الفتن في عصرنا الحاضر.

إذن، المسألة -أختي الطالبة- مسألة إيمان قوي وهمة عالية تناطح قمم السحاب، ولاغتنام أوقات الفراغ واستثمارها في الخير عدة أسباب من أهمها:

١- استحضار النية الصادقة الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى بين يدي كل عمل.

٢- استشعار أهمية الوقت في حياتنا وأننا محاسبون على كل يوم، بل كل لحظة في أعمارنا.

٣- قصر الأمل وتذكر هادم اللذات مصداقًا لقوله ﷺ: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات: الموت» [أخرجه الترمذي وغيره وصححه الألباني]**.

٤- دعاء الله عز وجل بقلب صادق بالتوفيق والتسديد في الأقوال والأفعال والإعانة على حسن اغتنام الأوقات.

٥- النظر في أحوال الصالحين والتأمل في سيرة السلف الصالح لشحذ الهمم لمعالي الأمور.

٦– المداومة على تلاوة كتاب الله عز وجل.

٧– الحرص على طلب العلم الشرعي.

٨– المداومة على الأعمال الصالحة والاستزادة منها.

٩– حفظ الجوارح عن المعاصي والآثام.

١٠– مجالسة رفقة صالحة تعين على الخير.

١١– تطبيق هدي الرسول ﷺ في عمل اليوم والليلة.

فإذا استعنا بالله عز وجل والتزمنا بما سبق ذكره –عزيزتي الطالبة– بلا نقصان أو تراخ، فإننا بإذن الله سنقطف ثمارًا يانعة من عمارة الأوقات، وننعم باسترداد الغنيمة الضائعة.

ختامًا: أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياك بما علمنا، وأن يعلمنا بما ينفعنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

